الباب الثالث

في المسجد

"إنما الشعلة من الشرارة"

بوشين

نحن الآن في المسجد الجامع، وإن شئت فقل جامعة الكوفة، مسجد بني في أعلى مكان من المدينة ليسع أربعين ألفا وبنيت له ظلة تبلغ مائتي ذراع من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكاسرة. مال ميزان النهار، وأخذت الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالساعة، يدب عقرباها إلى يوم الساعة، تحدد مواقيت الناس، فيفدون للصلاة ويتطهرون بالوضوء يرحضون أطرافهم ويغسلون وجوههم، وينتعشون بعد ما عانوا في سبيل المعاش إذ ينتقلون من الدنيا إلى حضرة الخالق في ركعات معدودات، هنالك تسمع زجلا للناس قد ألفوه بعد كل صلاة. إذ يأوون إلى ركن أو يلتفون حول واحدة من أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل في خصوماتهم واستفتاء قضاتهم.

هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد.. هذه حلقة مسعر بن كدام للقرآن والحديث، وتلك لابن شبرمة يقضي ويفتي، وتلك لمحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة، وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعا.. يكاد المسجد لا يخلو من درس، فأكثر الفقهاء يصلون أكثر الصلوات في المسجد الجامع.

وحتى فاتحة القرن الميلادي الحالي كانت لجامعات في العالم الإسلامي هي المساجد الجامعة، ففي الحرم النبوي كان النبي ﷺ يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم، وفي الحرم المكي كان مجلس ابن عباس إلى جوار الكعبة أكرم المجالس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم في واد واحد. وفي البصرة وفي الكوفة والفسطاط ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدائن التي خلع عليها الإسلام غلالات الحضارة، كانت الفصول الدراسية هي حلقات الدرس في صحون الجوامع، بل كان الناس يجلسون فيها للعزاء فتشتغل مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء في المسائل الفقهية والأدبية والقصصية وما إليها.

ولم يعرف نظام إنشاء المدارس لتدريس العلم خاصة إلا في سنة ٢٨٣هـ في بغداد عندما أنشأ نظام الملك مدرسته، وفي سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة نيسابور، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطلاب العلم جميعا، وعلى هذا ظلت المساجد بيوتا للعلم كما هي بيوت الله.

كانت إلى جوار تلك الحلق في جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي حنيفة النعمان،لا يقبل إليها من صومعة أو خلوة ولكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث، أو من داره، أو من أسفاره، أي من صميم الدنيا.

في هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبي سليمان إلى أن وافته المنية في سنة ١٢٠ للهجرة، وعامر بن شراحيل الشعبي حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٠٤، ومن قبل ذلك جلس إبراهيم النخعي إلى سنة ٩٥، وجلس الأسود بن يزيد النخعي إلى نفس العام، وجلس عبيد بن عمر حتى سنة ٩٢، ومن قبلهم جلس علقمة النخعي عم الأسود وخال إبراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتي الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢، كما جلس شريح بن الحارث الكندي نحو ثلثي قرن يقضي ويفقه الناس إلى أن مات سنة ٨٢، وجلس مسروق بن الأجدع يفتي الناس ويفتي شريحا حتى سنة ٦٣،ومن قبل هؤلاء جميعا جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود إلى أخريات أيامه، ثم ودع مجلس إلى المدينة حيث صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى في سنة ٣٢.

لم تكن حلقة أبي حنيفة كسائر الحلق بل هي كانت تثير المشكلات في الداخل والخارج، وتأتي كل يوم بجديد. يتجلى فيها طابع التطهر في الجسم وفي العقل معا،فلا يستعملون الماء إذا استمله سواهم، ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبي حنيفة للوضوء حياضا ذات صنابير، فنسبت هذه الصنابير إليه (الحنفيات) لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير لماء. والماء المستعمل غير طهور عند أبي حنيفة.

كان سفيان الثوري يفتي بجواز الوضوء بماء قد توضأ به الغير، فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم؟ قالوا له: يقول إنه ماء مستعمل، فجاءه بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل. فرجع فيه إلى قول أبي حنيفة.

(فالحنفية)التي تفتحها وتقفلها صباح مساء هي الذكرى المتجددة لهذه الحلقة المتأنقة في طهارتها لا ترد الماء إلا صفوا من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء.

وإذا كان من المسلمات في العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه، وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالا للماء، وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هي كالصلة بين النظافة والماء، فأي ذوق كان لأبي حنيفة من ألف ومائتي عام! بل أي طهارة، وأي حضارة.

وإذ كانت النظافة من الإيمان فمن كأبي حنيفة في نظافته وفي إيمانه!

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين، وينصح الحنفية بالاستياك عند كل صلاة، ووضوء، وكل ما يغير الفم وعند اليقظة مكن النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود لينا لا يابسا، وأن يغسله المستاك قبل استعماله، وألا يستاك وهو مضطجع.

ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام: "لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة".

رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثيابا رثة فأهاب بصاحب الثوب ليبقى بعد أن ينفرط عقد الحضار، حتى إذا صار الرجل وحده قال له: ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال: "خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك"قال الرجل إني لست أحتاج إليها. وأنا موسر. قال أبو حنيفة: "أما بلغك الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك)!

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل إنها لتصور لنا الصورة الحقيقية لهذا السيد السمح وتلك الحلقة الجديرة بأن تسمى حلقة النظافة، كما هي ولا مراء حلقة الثقافة.

بلى: إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. والناس كخالق الناس – سبحانه – يحبون أن يروا أثر النعمة على من حباهم نعماءه. والثياب الرثة لا تطمئن ولا تسر، وما لا يقبل شكله لا ينظر في موضوعه، فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ما تخضع، وأول ما يبدهك به الرجل منظره ومظهره. ففيم يفرض المتهاونون في مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على القذى!

قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد لخادمه: احمل معنا ألف دينار فإني أريد أن أمر بالأصمعي فإذا حدثني وأضحكني فضع الكيس في حجره، ثم صار إليه فحدثه الأصمعي بكل شئ فلم يضحك. فقال له صاحب كان معه: إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك، وليس من عادتك رد شئ قد أخرجته من بيت مالك. قال جعفر: وقد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم. ولم أدخل له بيتا قبل هذه الدفعة ورأيت حبه (الجرة الضخمة) مكدرا وعليه برنكان (كساء أسود) منجرد وتحته مصلى وسخ، وكل ما عنده رث، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مديحه وهجائه، فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه!

* * *

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته، واحتبى بطيلسانه واستند إلى المحراب، مشرق الديباجة طلق المحيا في بزته التي عهدناها وأقبل إلى الناس فحياهم، وإذا كان راجعا من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله، وإذا لم يك قافلا من سفره فهو بين ظهرانيهم يسهم في أمورهم ويتعهدهم ويواسيهم، فإذا شرع في الكلام انجفل الناس إليه مخلفين حلقاتهم، يتقصفون حوله صفوفا صفوفا، في زحمة لا تسمحللفتى الذي سيصير في الغداة إماما وبطلا (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلسا إلا في الصف الرابع أو الخامس، أما في الصف الأول فتجد الفوج الأول، أو الرعيل الأول، الزملاء القدماء: إسماعيل بن حماد، وأبا بكر النهشلي، وأبا بردة الضبي، ومحمد بنجابر الحنفي يجلس معهم بين الفنية والفنية أساتذة الحلق المجاورة، مسعر بن كدام – آية الكوفة في ورعه وحفظه وزهده – والحسن بن عمارة – أستاذ الحلقة القريبة – يجلسان مع أترابهما إلى ذلك الذي لا ترب له.

وهؤلاء في الصفوف الأخرى.. أسماء لها جرس بديع في الأذن: زفر بن الهذيل، كان أبوه والي البصرة وكانت أمه فارسية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لسانه.. ويعقوب – فتى من العامة سيعرف فيما بعد (بأبي يوسف) – والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكري للكوفة عبد الله بن مسعود، عالم في اللغة والأدب والشعر والحديث، وهذا أسد بن عمرو البجلي، والوليد بن أبان. ثم هذا صف آخر، فثمة وجوه جديدة: داود الطائي الذي سيرقى إلى الذروة في العلم ثم يغرق كتبه في الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاما، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه، وفضيل بن عياض، والحسن بن زياد اللؤلؤي، ويوسف بن خالد السمتي، ووكيع بن الجراح، ومالك بن مغول،

وحفص بن غياث، وعافية الأودي، وعلي بن مسهر، والأخوان مندل وحبان، ويحيى بن زكريا، وعبد الله بن المبارك، والمغيرة بن حمزة. وستأتيك أنباؤهم بعد حين.

وأخيرا وفي نهاية العمر، جاء فتى سمين وضاء المحيا كأن جبينه من العاج، تقدر ثروته بثلاثين ألفا، سينفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو، أبوا أن يقبلوه إلا أن يحفظ القرآن، فغاب وعاد يقول إني حفظته في سبعة أيام! لم يكد يجلس إلى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقها الشيخ إلى جوار ربه، ذلك محمد بن الحسن الشيباني.

وهؤلاء وهؤلاء. يناهزون الأربعين عددا. حلقة إسلامية بحق، فيها الموالي والعرب، وفيها أبناء الولاة وأبناء الشعب، وفيها المخلطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء.

بدأ الدرس وتطارح المتدارسون المسائل، فإذا كان في الحلقة غريب حياه وبدأ به فقال له: هات ما عندك. ويتناظرون فلا يستبد بآرائه، بل يطرح مسألة يسمعهم فيها ويسمعونه ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول: "لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت"، ويقول: "رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا". يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحرارا مع غيره، فلن يتعلموا الحرية في التفكير إلا إذا مارسوها في التعبير. ولن يتعلموها مع الناس إلا إذا تعلموها مع الأستاذ، وهو عندهم خير الناس.

ومن ألف عام قبل أبي حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون: أستاذي صديقي والحق صديقي فإذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة.

روى شاهد عيان: كنت عند أبي حنيفة وهو في مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو شاب فألقى علبيه مسألة فأجاب فيها فقال له: أخطأت يا أبا حنيفة، فسكت ثم ألقى عليه أيضا فأجاب فقال: أخطأت يا أبا حنيفة. فقلت لمن حوله من أصحابه: سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه! يجئ شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت! فالتفت إلي أبو حنيفة وقال "دعهم فإني قد عودتهم هذا من نفسي".

بلى، وأية غضاضة على العالم أن يخطئ أو يخطأ؟ أليس علي ﷺ يقول: "كنت لا أرى بيع أم الولد في زمن عمر. واليوم فقد رأيت ذلك"! وأبدى ابن عباس رأيه في مسألة من مسائل المواريث بعدم جوازها (العول) وقيل له: إنك كنت تراها في زمن عمر قال: "هبته وكان رجلا مهيبا..".

ذلك صنيع العالم يتراجع أمام حجة العالم، حتى إذا بدت له معايبها عاد يصدع برأيه من جديد، والذي يرجع عن خطأ الأمس إلى صواب اليوم لا يصنعه إلا لأنه اليوم خير منه أمس! ورجوع عمر نفسه عن خطئه كان مضرب الأمثال. ففيم يشفق الشاهد على أبي حنيفة إذ يقول له الغلام مرة بعد مرة أخطأت!

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيرا أخف ففيم ذلك أيضا؟ والأشياء لا تسمى بغير أسمائها إلا في معارض النفاق. والنفاق ليس من دروس أبي حنيفة. وإذا لم تسم الأشياء بأسمائها في حلقات الفقه وحلبات الجدال فأين تسمى بأسمائها الأشياء؟ إن الخطأ ليس إلا الخطأ. يسميه كذلك القائل الحر للسامع الحر، وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يضيع الزمان سدى.

قال رجل لعمر بن الخطاب: "اتق الله". فأنكر ذلك بعض الحاضرين فقال عمر: "دعه فيلقها لي، نعم ما قال، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها".

إن العظيم الحق لا تضيره كلمة الحق، وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة إلى الخلق العظيم الكواكب. فلعل الحق أن يجيئه من أي ذرة من ذرات هذا الوجود أو أي رجل مهما يكن من الخمول والفدامة. وهو لن يستطيع أداء رسالته إلا إذا وثق من قدرة الله على أن يصلح الدنيا على يد سواه.

قيل لأبي حنيفة: لا يزال هذا المصر بخير ما أبقاك الله فيه فأجاب:

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفردي بالسؤدد

وفي أواخر القرن الرابع دعا أهل القيروان علي بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي، ليجلس فيهم معلما فأبى، فهدموا عليه بابه إذ أغلقه دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد:

لعمر أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

ثم قال: وأنا والله ذلك الهشيم.. وبكى وأبكى.

فإذا نبت من المناظر كلمة، فما أحلم أبي حنيفة! وإذا تدهور صاحب السخيمة إلى الكلم الجارح فهو يقذف الهرم، وينطح الطود الأشم. قال له الرجل يا مبتدع يا زنديق. قال: غفر الله

لك، الله يعلم مني خلاف ما قلت، وأني ما عدلت به أحدا مذ عرفته. قال الرجل: اجعلني في حل. قال الإمام: "كل من قال في شيئا من أهل الجهل فهو في حل.. وكل من قال في شيئا من أهل العلم فهو في حرج، فإن غيبة العلماء تبقى شيئا بعدهم".

ولقد يطول البحث في المسألة الواحدة أياما وليالي أو شهرا أو أكثر من شهر. فيدأبون على الدرس ويكبون على التخريج. حتى إذا قتلوها بحثا أثبتها أبو يوسف بعد أن يتولاها الفحول بالقبول. أو التفت الشيخ إلى من يكتب منهم فقال له: "ضعها في الباب الفلاني". ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ما تعلموه فإذا أحكموه أخذوا في غيره، وإذا استعصت مسألة أو غلوا فيها وتوفروا عليها حتى إذا قطعوا فيها برأي تهللوا بشرا وصاحوا صياح الفرج قائلين الله أكبر! الله أكبر!

ابتدءوا في مسألة الحيض فخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالغداة والعشي، فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعا لله، وكان ذلك إيذانا بأن مسألتهم قد خرجت.

وإذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال: "اللهم لا تؤاخذني"، ثم يفتي.

وفي ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله في يده، فكلمه زفر في مسألة، فتجاريا يتقايسان، حتى نودي لصلاة الفجر وهما قائمان، فرجعا إلى داخل المسجد. ورجعا إلى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبي حنيفة.

ترى لو لم يكن هؤلاء القوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة في شرع الله إنما هي سجدة من السجدات لذاته وتسبيحة بآلائه!

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله – جل شأن الله – يولون وجوههم شطره في المحراب أو في حلقة أبي حنيفة.

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال: من تعلم العلم للدنيا حرم بركته، ولم يرسخ في قلبه، ومن تعلمه للدين بورك له في علمه ورسخ في قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه".

أليس هو القائل لنابغتهم أبي يوسف: "... وإن بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم، فإنك إذا أعرضت كانت معيشتك ضنكا". على ما قال الله تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا). بل لقد علمهم أن العلم توفيق وإلهام وعبادة إذ كانت تشكل عليه المشكلة فيقول: ما هذا إلا لذنب جنيته، فيستغفر الله، وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة....

أجل وهو الذي طالما قال لهم: "إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا".

وهذا الذي يقوله الشيخ لتلاميذه هو الذي قاله رسول الله من قبل: "أفضل العبادة الفقه". خرج ﷺ فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله.. فقال: "كلا المجلسين إلى خير ،أما هؤلاء فيدعون الله تعالى، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل.. هؤلاء أفضل، بالتعليم أرسلت" ثم قعد معهم.

كان الطلاب في الحلقة خشعا قلوبهم،عالقة أبصارهم بالشيخ، يديرون المسائل في عقولهم وألسنتهم، في حين تكاد آذانهم تشرب من عباراته، وهو يتكلم كأن ليس في المجلس أحد وكله فقهاء ورؤساء ولكنهم سكوت خاضعو الرقاب.

قال زفر: "إذا تكلم خيل إليك أن ملكا يلقنه ما يقول"، فمن فاته من الدرس فكرة، أو ضاع من وقته فترة، فقد نصف عمره، إن لم يكن كل عمره. مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شئ لا تذهب حسرته عنه.

ضن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليستبقى لنفسه ساعة من أبي حنيفة! فأية حكمة تلك التي كان ينهل منها القوم، وأية نعمى هذه التي كانوا يؤثرونها..! إن المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبي يوسف إلا إذا ذكر موقفا آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصح تقديرا إذ كان أبعد زمانا ومكانا.. أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه، حتى إذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين.

في تلك الأيام سئل عما يوده فقال "وددت أن لي مجلسا من أبي حنيفة بنصف ما أملك" قيل، ولم تتمنى هذا! قال: "في النفس حزازات كنت أسأله عنها".

حقا، كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون. روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ غائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين: شيخنا ليس حاضرا ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ بالكلام.

وقيل لأبي يوسف وهو قاضي القضاة: هل وددت إلى أكثر مما أنت فيه؟ فقال "وددت إلى زهد مسعر بن كدام وفقه أبي حنيفة". قال الرشيد: ما تمناه أكثر من الخلافة. ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء، وأين الخفاء من الأنبياء.

تلك الرهبنة العلمية ورثها تلاميذ أبي حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعلم والدين معا كمثل أبي جعفر النسفي، يبيت ليلته مهموما من ضيق البال، وكثرة العيال، فيقع في خاطره فرع من فروع المذهب فيعجب به ويقوم ويرقص في داره ويقول أين الملوك! وأبناء الملوك! فتسأله زوجته عما حدث فيخبرها فتعجب..!

جاءت القزويني زوجته وهو يلقي درسه فأسرت إليه خبر وفاة ولد له شاب كان يحضر معه في كل يوم ولم يحضر معه في ذلك اليوم،فأمرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئا، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال: إن محمدا دعي فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر!

ومن قبل أبي حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقي دروسه وبين سامعيه أورلينوس أحد عظماء روما، فدخل جندي برسالةمن الإمبراطور إلى أورلينوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس، لكن العظيم الروماني لم يفض الكتاب إلى أن انتهت المحاضرة.

أولئك رجال العلم خشع في محرابه، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس،فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك، والساعات التي تتيحها العناية الإلهية للناس إذ يجلسون إليهما ليست مما يسرف الفتى اللقن في إنفاقه.

وفي بعض الأحايين يطول الجدال في الحلقة، ويحتدم وتتعالى الأصوات بلا ضابط، حتى قال فيهم الشاعر:

قــوم إذا اجتمعــوا صــاحوا كــأنهمو ثعالــب صــيحت بــين النــواويس

فإذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت الآذان والأذهان، فللحلقة قانون غير مدون ولكنه في القلوب. إنه "إذا تكلم الشيخ فسمعا وطاعة". لقد جاءوا إليه وهم أحرص الناس على لقياه وسماعه، عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد، عارفين أنه قيل له إن في هذا المسجد حلقة ينظرون في الفقه. فسأل: "هل لهم رأس؟ قالوا:لا. قال: لا يفقه هؤلاء أبدا"...

بلى: كيف يفهم الناس بلا رؤوس؟.. وكيف تنتظم الحلقات بلا رئيس؟

سمعهم مسعر بن كدام في صخبهم ثم بصر بهم سكوتا كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال: "إن رجلا تسكن عنده الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام". لكن الأستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم، فإذا نبههم الناس أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغي في المسجد قال: "دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا"!!

إنهم لم يكونوا تلاميذ إلا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ،فلسوف تراهم الدنيا غدا فحولا دونهم كل الفحول والأفذاذ، لو شهدتهم حول أساطين المسجد الجامع لحسبتهم في مؤتمر دائم لا يكاد ينفض.

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام مليا ثم قال: هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين.. ثم قرب إلى المسجد فقال لأصحابه: يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التي مضت منها.

كان محمد بن أبي ليلى قاضي الكوفة على حلقة أخرى بالمسجد، وكان كثير الشكاة من تلك الحلقة التي تشرح أقضيته، لكنه كان يتلمس في الخفاء رضاء الشيخ عن تلك الأقضية، وإذا قدم ابن إسحق صاحب المغازي إلى الكوفة جاراه في المسائل. أما مسعر بن كدام فيترك تلاميذه ويجلس في حلقة أبي حنيفة، فيقول له تلاميذه: نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجلس إلى أهل البدع؟ فيجيب: "لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعهم علما".

وإذا سأل سائل عن العلم فإن للعلم مكانة، وللمفتي وقارا لازما لاستجماع الفكر يمتنع معه أن يفتي في عرض الطريق. قال لسائله مرة: "لا تسألني عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس، أو نائم أو متكئ فإن هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجال".

وللمرأة احترامها وحياطتها إذا جاءت إلى الحلقة تستفتيه، فإنه ينهض إليها من وراء السارية فيفتيها، ثم يعود إلى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى ويقول عن الحجاب الذي ضربه بينها وبينهم: "إنما غرضي أن أحصنها من أحداق الرجال".

وإذا قام من الحلقة عاد مريضا أو شيع جنازة. بل إنه ليحمل سرير الميت من تلاميذه أو أصدقائه – آية وفاء وتحية وداع – أما دار ابن حريث فالريح تجري فيها رخاء وعلى يد الله.

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح، فالرجل الذي يقسم حياته بين يدي الله في داره طول الليل لا ينقص منه لنومه إلا قليلا، وبين يديه أكثر النهار في بيته يؤدي فريضة العلم لعباده، والذي يخرج عن ماله الضخم في سبيل العلم وفي سبيل الله، إنما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التي يحملها للناس. ولهذا لم ير مستجمعا ضحكا قط، وإن كان يبتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه.. والقهقهة ليست على كل حال من خلائق السادة.

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوما!.. كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم: عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤هـ، والذي كان يطبع الجد قسماته وحركاته حتى ليظنه الرائي قد أقبل من دفن والديه، وإذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تحلقا إلا له، ناظره أبو حنيفة في فتوته، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أفحم الزعيم العظيم فضحك، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال: يا فتى تتكلم في مسألة من الشرع وتضحك! والله لا أكلمك بعد هذا أبدا. قال أبو حنيفة فانقطع الكلام بيني وبينه رحمه الله وقال إن هنادم على ما فرط منه أبدا. وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انساق إليه من المغالاة.

وإنه ليلقى درسه في المسجد ذات يوم فإذا بحية تسقط في حجره وهرب الناس، فما زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه، واضطرب الدرس وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فرارا وملئوا منها رعبا. أما هو، والحية قد سقطت في حجره هو، فقد استقر مكانه، مستبقيا عنانه، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد: "فلا والله ما تخلخل ولا تحول من مكانه ولا تغير". ثم قال: (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيدا عنه".

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس. لكأنه إذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد في المحراب بين يدي الله.

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شانه الارتياع للبغتات والفجاءات، لكن سموه على طيش الفجاءة قد زاده كرامة، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ في وقاره وضعا مسرحيا ولا مدرسيا بل استمر في درسه كأن لم يقع ما يريب.

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة في إحدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه: لا تبرحوا. فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم: ما أنتم؟ قال الأستاذ من فوره: "نحن مستجيرون"؟ قال أمير المغيرين دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرءوا عليهم القرآن. فقرءوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم.

وبهذه البديهة المسعفة، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة معسفة، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعملوا فيهم السيوف، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصبة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقه.

وهكذا جرت على لسان أبي حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال، وجرت في خلد أمير الخوارج نسمة من نسمات التفتح الروحي، وتذاكر المتحاوران في صمت قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وسما الخوارج عن سفك الدماء، وسما أبو حنيفة في التعبير عن أن يقول: إنهم "مشركون مستجيرون" كما قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء إذ هم الخوارج برأسه فعصم منهم رأسه ونفسه. لكن أبا حنيفة يقف وما في الموت شك لواقف، فيصيب في العبارة والإشارة، ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات.

كان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام، وامتد الوقار من ذاته إلى عباراته، فإذا حلف صادقا في عرض كلامه تصدق بدرهم! ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين دينارا.

قال جعفر بن ربيع: "أقمت عند أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتا، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويا وجهارة في الكلام". وليس يرجى غير ذلك من رجل وهب نفسه للعلم خمسين حجة كاملة أو يزيد، يقرأ القرآن في كل وقت، ويبرز في

حلقات المتكلمين في صدر حياته حتى إذا بلغ عنفوانها قضى عليه القدر أن ينهض برسالة من الرسالات التي تدين لها الحضارة الإسلامية بأسباب البقاء.

* * *

والجهارة والدرى، والسلاسة والتدفق،وحسن الإلقاء – كانت وما زالت وسيلة المحدث النابغة إلى القلوب، مثلما هي جواز المرور للكاتب والعالم والخطيب. وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد، من "ديموستين" إلى "شيشرون" إلى "ابن أبي طالب" إلى "ميرابو"، وفي "أثينا" و"روما" و"بيزنطة"، وفي أسواق "عكاظ" و"مجنة" و"ذي المجاز" و"مكة" و"المدينة" و"العراق" و"مصر"، وفي قصور الأمراء، وفي رمال الصحراء، وفي محافل باريس ولندن وفي كل مكان.

وسيبقى ذلك شأن البيان في كل زمان، والناس دائما هم الناس وكلما غير الزمان وجهه أظهر للدنيا وجهه نفسه باعتباره وجها جديدا.

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء. فالعلم لا ينبع من القلب إلا عند استجمام فضله واستجماع عفوه.

سئل الشافعي عن مسألة فسكت فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ قال: "لا، حتى أدري أين الفضل، في سكوتي أم في الجواب".

من أجل ذلك، كان مجلس الشيخ مهيب الجانب "ورأيه لا يدفع بالهوينا" كما يقول الشافعي: "ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته" كما يقول مالك. كانت كلماته قطرات من البلور المذاب تهب عليها نفحة من منطق الرسول الذي قالت عنه أم معبد: "كأن منطقه خرزات، نظم يتحدرن".

والحضانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح إلا بالخلو إلى النفس بالسكوت، أو كما قال ابن المقفع:"ربما كانت البلاغة بالاستماع". والذي يتحدث حديثا صالحا لا يتحدث إلا لداع، فالحديث كالماء يتخذ لون الوعاء فإذا ألقيت به في غير مكانه أو في غير أوانه أو أدليت به إلى ضمير جامد أو شعور بارد، كان لا لون له ولا طعم فيه وهو السلسل العذب، بل إنه ليغص به الشارب وتقتحمه عين الرائي.

فإذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلي بها حيث يجمل الإدلاء، ويجدر الإفتاء، ويصدع برأيه حيث تعترك الآراء، وعندئذ يسيل كالسيل إذا اجتاح جنبات الوادي.

قال: "لا تحدث بفقهك من لا يشتهيه فتؤذي جليسك. ومن قطع عليك حديثا فلا تعده فإنه قليل المحبة للعلم". وقال في إحدى خطبه: "إن الكلام كثير ومحكمه يسير، وإن الكلام لا ينتهي حتى ينتهي عنه، وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله" وقال لأبي يوسف وهو يمرضه النصيحة "من جاءك يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم إليه غيره فإنه يتشوش عليه جواب سؤاله.. ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك".

على هذا النحو ظلت حلقة أبي حنيفة ثلاثين عاما تعمل في مؤتمرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها، يتلقون المسألة فيقسمونها أقساما ويتولون كل قسم أياما وليالي بالتحليل والتعليل، حتى إذا قعدوا قواعدها راحوا يفترضون الفروض التي قد تقع في المستقبل وتتداولها أدمغتهم كأنها تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والحماسة، فتخرج أحكامها على أيديهم كالجنين الحي. وانتشرت موجة الافتراض والتفريع فإن ما لا تكفي فيه النصوص تنفع فيه الأصول. ولئن صح قول ابن عجلان: "إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مفاصله" فإن حلقة الكوفة كانت تعرف هذه القاعدة ولا تحتاج إليها ومع ذلك سلمت مفاصلها، ذلك بأن الأسئلة لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها كثر، ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وإنما يصدر بعد البحث في المؤتمر، ولم يك وليد الفكرة وحدها وإنما كانت تطبق عليه قوانين وضعوها. فكيف لا توجد القوانين الموضوعة، والعقول الدائبة على البحث، حلولا للأشياء. إن الضعف الإنساني يجيره طول المران والإيمان والتعاون والإخلاص، ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبينن العلم. وإنهم لفاعلون.

ذكر ذاكر أمام أبي حنيفة قول الشعبي: "لا أدري نصف العلم" فرشقه بكلمة لاذاعة قال: "فليقلها مرتين ليكون له كل العلم".

وجرى حديث هذه الدروس في شبه الجزيرة وفي العالم الإسلامي كافة، وشاركت الخمس والخمسون حجة التي يمم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة في إذاعة أبنائها، فالشيخ في مكة والمدينة في كل عام تقريبا يناظر ابن جريج فقيه مكة، والأوزاعي فقيه الشام، والليث بن سعد فقيه الفسطاط، بل الليث يعمل على الخروج للحج إذا خرج أبو حنيفة ليناظره. والشيخ يجلس في المسجد الحرام يفتي أهل المشرق والمغرب، وكبار الناس حضور، لا يرى أصبر منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة، وهو كل الليل والنهار في طلب الآخرة حتى لقد شوهد عشر ليال لا يهدأ الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعليم والناس يزدحمون حوله في المسجد الحرام من كل الآفاق، فيجيبهم ويفتيهم كأن المسائل في كمه يخرجها فيناولها إياهم في أدب يأسر القلوب!

كان يفتي يوما فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة – الذي قيل إنهم رووا له ٤٠٠ كتاب – ففطن أبو حنيفة له فقام وقال: "يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآني الله أقعد وأنت قائم" قال له: "اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائي".

وفي مكة احتاج الوالي إلى شرط يكتب له فقال لابن شبرمة وابن أبي ليلى: اكتب. فكان إذا كتب هذا شيئا أفسده هذا حتى إذا قدم أبو حنيفة على الأمير قال الأمير: احتجنا إلى شرط كذا وكذا قال أبو حنيفة:قل لكتابك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شبرمة وابن أبي ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدرا أن يقولا شيئا، وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا: أما ترى هذا الحائك جاء في ساعة فكتبه. قال له صاحبه: "لا تقل الحائك فإن الحائك عندي من لا يقدر أن يكتب هذا القدر ويستروح إلى سب العلماء".

فإذا ذهب إلى المدينة لقى زعميها الجليل مالك بن أنس. وكان أبو حنيفة لا يكلم أحدا إلا قطعه ولكنه يرفق إذ يكلم مالكا. كانا يتدارسان بعد العشاء في مسجد الرسول حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة. ولا يزالان كذلك حتى يصليا الغداة في مجلسهما!

قصدا يوما إلى الحرم النبوي معا ومالك قابض على يده يمشيان، فلما بلغا المسجد قدم مالك أبا حنيفة فدخل قبله، وكان مالك يجلس سفيان الثوري دون المجلس الذي يجلس فيه أبا حنيفة. ولا عجب فإن سفيان كان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه، وإذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذي يجيب.

ومع ذلك كان أبو حنيفة يرهق مالكا بحجاجه. قال الإمام الليث: "لقيت مالكا في المدينة فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت مع أبي حنيفة. إنه لفقيه يا مصري. ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن قبول هذا الرجل منك. فقال أبو حنيفة: "ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام".

ومع ذلك كان مالك يقول: "ما أحلمه". ولولا حلم أبي حنيفة عليه لما تركه يتفصد عرقا!

ترى أية لحظات في تاريخ الإنسانية كانت هذه اللحظات! وأية أشعة من سنا الفكر كانت تتبادلها هذه الكواكب في جوار النجم الأكبر الذي ما يزال يبعث شعاعه إلى الوجود الإنساني! إمام مصر، وإمام دار الهجرة، والإمام الأعظم، في جوار الرسول ﷺ!

فأي رجال.. وأي خيال..

هكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ في اتساع الدائرة واشتهار المدرسة.

هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذي تفقه به مالك، والليث بن سعد إمام مصر، ومالك، والأوزاعي، وابن جريج، وجعفر الصادق، وابن إسحاق صاحب المغازي، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن عمارة، وحمزة المقرئ، والجرجاني عبد الكريم بن محمد، وقتادة المحدث، وحماد بن زيد إمام البصرة، وأبو مقاتل السمرقندي، وخارجة بن مصعب إمام سرخس، والنضر بن محمد، ومسعر بن كدام، وعمر بن ذر، وعمرو بن عبيد، هؤلاء الزعماء الفكريون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الإسلامية بالنور، وكانت لهم مع أبي حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواؤهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين، فكانوا يرون في بريق الشيخ وصفائه بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطالع نفسه، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم في الكوفة أو في البصرة أو في مكة أو في المدينة خلاصات التفكير الإسلامي في كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية إلى دراساته، فيلقحها بلقاح جديد ليطبعها بالطابع العالمي الشامل. حتى إذا جادله سعيد بن أبي حجر ذات يوم قال: "يا أبا حنيفة كل ما أخذناه تفاريق من قوم شتى وجدناه عندك جملة"!

حقا لقد انتهى إليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد، وبحسبك أن تقرأ ما فات من أسماء، وأن تتصفح ما في الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول، لتجتمع لديك القائمة الذهبية بمنابع الفقه الإسلامي وروافده لا تكاد تنقص شيئا. تلتقي تياراتها في مدرسة الكوفة منبعا أو مصبا.

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكنوز المباركة، فيها أسلمت دولة بني أمية روحها، ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة المفكرين روحا جديدا أمدها بأسباب الحياة؟